بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثامنة

«الفكر الإسلامى الحديث... وصلته بالاستعمار الغربى»: هو مواجهة مباشرة لتيارات فكرية مستترة، وراء عناوين خادعة. وهى فى جوهرها محاولات عنيفة لفصل المسلمين عن دينهم. ووضعهم فى مجالات التبعية لغيرهم. هم وما تحت أيديهم من ثروات طبيعية. وما لهم من طاقات بشرية.

ويواجه تيار الماركسية الإلحادية، المتخفى وراء اسم: العدالة الاجتماعية.

وما فى العالم المادى اليوم من مجتمعات يقع فى حماية هذا الاتجاه. أو ذاك. والمجتمعات البشرية على تعددها تنتمى إذن إلى واحد منهما.

وإذ يحسن كل تيار منهما اتجاهه الخاص به فى نظر الشباب المسلم، يحاول فى الوقت ذاته أن يشوه رسالة الإسلام، ويصفها على الأقل: بأن دورها للبشرية قد انتهى ولم تعد صالحة اليوم لحل مشاكل المجتمعات الإنسانية.

والمهمة الأولى لهذا الكتاب:

أن يكشف عن قيم الإسلام وعن صلاحية هذه القيم وحدها لتلافى مشاكل المادية فى المجتمعات المعاصرة وهى تلك المشاكل التى واجهها على عهد الرسالة باسم الجاهلية. فجاهلية الأمس هى مادية اليوم.

وبهذا الكشف دخل الكتاب فى صراع لا يهدأ مع الدافعين لهذا التيار أو ذاك، خارج المجتمعات الإسلامية أو داخلها، والمعاونون لهذا التيار أو ذاك: هم فى واقع الأمر أصحاب سلطة فى هذه المجتمعات، وأصحاب عضلات قوية فيها.

ولهذا كان هذا الكتاب: «الفكر الإسلامى الحديث.. وصلته بالاستعمار الغربى».. عرضة لأن يصادر ويمنع تداوله من أصحاب السلطة؛ لأنه يقل أن يكون هناك صاحب سلطة فى هذه المجتمعات يود أن تكون مسئوليته فيها أمام مبادئ الإسلام وقيمه.

وقد صـودر الكتاب، ومنع. ويصادر ويمـنع معه كل كـتاب آخر بقلم مـؤلفه، عندما يظهر التحول إلى الماركسية الإلحادية فى أى مجتمع إسلامى.

والمؤلف لا يحزن على المصادرة والمنع؛ لأنه يوم ألفه لم يستـهدف بتأليفه سوى وجه الله وحده: لم يستهدف دنيا، ولم يستهدف إرضاء نظام حكم، أو حاكم.

واليـوم يعود هذا الكتـاب فـيطبع وينشر فى القـاهرة، بعـد عشـر سنوات من مصادرته فـيها. لا لأن رأى المؤلف فى الكتاب قد تغـير، ولكن لأن الخداع فى أى تيار من التيارين المشار إليهما قد زال أو كاد، واتضح ما وراءه من استعمار صليبى، أو آخر ماركسى إلحادى. وهو ذلك الأمر الذى تحـدث عنه الكتاب فى غير مواربة، محذرًا المسلمين من خداع الصليبية الدولية، والإلحاد العلمى للشيوعية العالمية.

ولعل تلك اليقظة التى ظهرت اليوم بين شباب المسلمين -بعد أن انكشف الخداع الاستـعمـارى الفكرى والأيديولوجى -تسـتمـر حتى تدفع إلى الكشف عن قـيم الإسلام كمنهج سليم للحياة الإنسانية فى مجتمعات المسلمين.

وبذلك يقـبل الشباب على فـكر أصيل فى تاريخهـم، يساعدهم على بـقائهم مستقلين عن هذه الكتلة أو تلك.

ويجعلهم أصحـاب إرادة حرة فى توجيه طاقاتهم البشريـة، واستخدام ثرواتهم المتكاملة فى حفظ قوتهم، واستقلال إرادتهم، أولاً.

وأنت يا مولاى:

لك الشكر أولاً، وآخرًا:

فقد أعنتنى على ما كتبت، ووفقتنى فيما رأيت،

وأعنت المسلمين اليوم على البدء فى كـشف خداع أعدائهم، وعلى الرجوع إلى أنفسهم وما حولهم، وما بين أيديهم.

«ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا».

دكتور محمد البهى

مصر الجديدة: ١٦ من رجب ١٣٩٥ هـ

٢٥ من يوليه ١٩٧٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الرابعة

فيما كتبت في هذا الكتاب عن صلة الاستعمار الغربي بالفكر الإسلامي الحديث. ومدى تأثير هذا الاستعمار على اتجاهات الفكر الإسلامي -في عصرنا الحاضر- لم أكتب ظنّاً ولا تخمينًا، ولا متجاوزًا معمما أو مقللا منتقصًا وإنما وقائع سجلتها. هي من عناصر التاريخ الحديث، ومن فعل المستعمرين أو رداً لفعلهم.

ولكن رغمًا عن ذلك، فإن بعض الكتاب والمفكرين في مجتمعنا الشرقي الحاضر -لأنه لم يزل متأثرًا بالغرب وحضارته وبفكره واتجاهاته، إذ قد عاش فيها وبها في هذا المجتمع -لم يستطع أن يتصور أن «علماء الغرب» من الذين تصدوا للدراسات الشرقية الدينية واللغوية- على الأخص- سلكوا في طريق البحث ومنهج عرض التعاليم الإسلامية مسلك المعين على بقاء الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية، التي احتلها بصفة عامة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مسلك الذي ترجم فكر المستعمر بقلم محترفي البحث ومرتدي ثوب العلم!

وقد حدث -بعد أن ظهر هذا الكتاب في طبعاته السابقة - أن صدرت بحوث تتعلق بالمستشرقين بينت في غير لبس مدى تحدي هؤلاء باسم البحث العلمي، ومدى جرأتهم في توجيه نداءاتهم المتعددة للمسلمين في الوقت الحاضر في وجوب إقدامهم على تعديل إسلامهم، حتى يلائم الحضارة الإنسانية القائمة أو مواجهة الركود فالفناء المحقق!!! كما أبانت مدى خطر هؤلاء على الإسلام والمسلمين، وأن دعوتهم هذه لا تقل -في هذا الخطر والضرر- عن تلك الدعوة الأخرى التي يوجهها إلحاد العلم الماركسي في الوقت الراهن في أفريقيا وآسيا!

وآثرت -من أجل إزالة أي أثر للشك- أن أضيف هذه البحوث التي نشرت أخيرًا لهذا الكتاب كملاحق تلحق به.. وهي بحوث ثلاثة:

* أحدها: للمؤلف، نشر فى مجلة الأزهر.

* وثانيها: للدكتور حسين مؤنس، نشر فى أهرام الجمعة.

* وثالثها: للأستاذ الطباوى، نشر باللغة الإنجليزية فى مجلة «العالم الإسلامى».

وبذلك يكون قد توفر لكتاب «الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى» فى طبعته الرابعة مزيد من الأدلة على قيمة ما عرض فيه من آراء واتجاهات.

وإلى الله وحده نتوجه فى أن يوفقنا فيما نعمل ويجزينا خير الجزاء على ما نقصد لديننا وأمتنا.

والله من وراء القصد.

محمد البهى

١٠ صفر الخير ١٣٨٤هـ.

٢٠ يونيه سنة ١٩٦٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الثالثة

ليس لى من كلمة أقدمها بين يدى الطبعة الثالثة لهذا الكتاب، إلا أن أعبر عن شكرى لله سبحانه وتعالى على نعمة التوفيق فيه. فليس لكاتب أو مفكر أن ينتظر فى وصف توفيق الله على نعمة أنعم بها عليه، وراء قبول قرائه لما كتب ولما فكر، ولاستجابتهم لما أبدى من رأى وشرح من فكر، بما يعبرون عنه من تقدير فى صور مختلفة.

فبالرغم من أن لى كتبًا وكتابات غير كتاب: «الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى».. فقد كنت أعرف وأعرف به فى رحلاتى المختلفة فى المشرق والمغرب، التى قمت بها منذ منتصف عام ١٩٦٠ إلى آخر عام ١٩٦١ سواء فى الباكستان، أو فى الملايو، أو فى أندونيسيا، أو فى الفلبين، أو فى شمال أفريقية: فى ليبيا وفى المغرب، أو فى غرب أفريقية: فى نيجيريا.. فما ذكرت فى مرة من المرات أثناء هذه الرحلات، وما عرفت عند إلقاء محاضرة أو حديث، إلا بأنى مؤلف: «الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى».

وقد شاء الله أن تكون هذه الطبعة الثالثة بالعربية لهذا الكتاب، مقرونة فى الوجود بالترجمة الأولى إلى اللغة الأندونيسية، والتركية، والإنجليزية، والأردية.

وذلك فضل الله أعتز به، وأشكره عليه بالتوفر على تأليف جزء ثان لهذا الكتاب بإذن الله، سيكون مجاله «الفكر الإسلامى فى بلاد المغرب وفى الجزء الغربى من أفريقية».

والله جلت قدرته أستلهمه السداد فيما أكتب، وحسن القصد فيما أخطو إليه.

وكمـا أملت فى يقظة الوعى الإسلامى عن طريق هذا الكتـاب عند صدوره فى الطبـعـتين الأولى والثـانيـة، يزداد أملـى فى قـوة هذه اليـقظة عند صـدور هذه الطبعة...

والله ولى الأمر وحده...

وإليه المآب.

القاهرة: مارس ١٩٦١.

الدكتور محمد البهى

مدير جامعة الأزهر

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب فى أكتوبر سنة ١٩٥٧م، وما كادت تنتهى سنة على ظهوره حتى نفدت هذه الطبعة، رغم أن الإعلان عنه من المؤسسة التى تعهدت بتوزيعه كان محدوداً، ورغم أن الثمن الذى قدر للورق الجيد منه كان فوق مستوى الثمن للكتاب العربى فى جملته.

ولم أحاول أن أتصل بناقد من نقاد الكتب، يعرض له بالمديح والثناء عليه فى صحيفة يومية أو أسبوعية، ولم أقم بإهداء نسخ منه إلا لعدد قليل.. لاشحا وبخلاً به، ولكن خشية من أن يساء فهمه وفهم مؤلفه لو توسعت فى إهدائه واقتحمت به بريد الكثيرين من الكتاب والمفكرين: خشيت أن تلصق به رغبة الترويج، وتلصق بمؤلفه رغبة الدفع لما فيه من آراء، وخاصة أنا أعلم أن ما فيه من آراء - تتصل بقيم المستشرقين والاستشراق، وبقيم الماركسية والوضعية المادية - سيغضب الكثيرين ممن يوالون هذا الاتجاه أو ذاك، ويعيشون فى حياتنا اليوم على ترديد ما لواحد منهما أو لآخر... وعددهم بين الكتاب والمؤلفين المعاصرين ليس بقليل.

تركت الكتاب إذن يعيش بنفسه وبقيمته، بين الكتب التى تخرجها المطابع العربية: فى القاهرة، وبيروت، وبغداد، ودمشق، والرباط. ومن فضل الله عليه وعلى مؤلفه، أن لقى من التقدير ما يسر له من نفاد طبعته الأولى فى زمن قصير، رغم كل الظروف التى أشرت إليها، والتى من شأنها أن تمهله أو تبطئ به فى السير نحو الرواج والنفاد.

وقد توج هذا التقدير للكتاب، ما تفضل به السيد الوزير «كمال الدين حسين» وزير التربية والتعليم المركزى مشكوراً، من نصح الشباب بقراءته، وذلك فى حديث لسيادته فى صحيفة «الأهرام»، وفى حديث آخر فى إذاعة الجمهورية العربية المتحدة بالقاهرة.

وما أن نفدت الطبعة الأولى، حتى دفعت بالكتاب للطبعة الثانية التى أقدمها اليوم، والتى استغرقت من الوقت قرابة عام، نظرًا لكثرة الأعباء التى أضيفت إلىَّ فى الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر، بجانب التدريس فى كلية اللغة العربية.

وما فى هذه الطبعة من موضوعات وآراء ومنهج للبحث. لا يختلف عما جاء فى الطبعة الأولى... لا تخلصًا من أعباء امتحان ما فى الكتاب من آراء - على الأقل- مرة ثانية فى ضوء ما حدث من كتب للمعرفة عليها صدرت، وتتصل بموضوعا الكتاب. أو فى ضوء مراجعة أخرى لبعض المصادر التى اعتمدت عليها من قبل، ولكن لأن نتيجة الاختبار الدقيق من جديد لما فى الكتاب كله، قد أكدت نفس الآراء، كما أكدت سلامة منهج البحث فيه.

وكل ما تتميز به هذه الطبعة الثانية: هو البسط فى عرض بعض الفكر مرة، والعدول عن بعض الألفاظ والتراكيب التى استعملت سابقًا إلى غيرها مما هى أكثر دقة فى تأدية المعنى المطلوب، أو أكثر وضوحًا فى التميز عنه مرة أخرى.

والأمل الذى عبرت عنه عند تقديم الطبعة الأولى من هذا الكتاب - وهو إيقاظ الوعى بتفكير توجيهى محايد، وبـ«أيديولوجية» لا هى بالشرقية الإلحادية ولا هى بالغربية الصليبية، تقوم بين المسلمين على أساس من الإسلام الأصيل نفسه - لم يزل هو الأمل نفسه، يتجدد مرة أخرى، لأن فكرة «الحياد الإيجابى» فى سياسة الشعوب الأفريقية والآسيوية بدت الآن أوضح عن ذى قبل، يوم أن صدر هذا الكتاب لأول مرة.

وكلما مال الأمر فى سياسة هذه الشعوب إلى «الإيمان» بالحياد الإيجابى، كلما نشط الوعى بينها فى دائرة التوجيه إلى الرجوع إلى القيم الأصيلة فى تراثها الثقافى والروحى، والاستناد إليها فى النظرة إلى الحياة، وفى السلوك الإنسانى، وفى الترابط بين الأفراد.

ثم إن تطور وضع هذه الشعوب وتحررها تباعًا من الاستعمار لا يقوى فيها دافع الحرص على استقلالها فحسب، وإنما ينمى مع ذلك فيها «ذاتيتها» و«شخصيتها» وتنمية الذات أو الشخصية يستتبع حتمًا التفتيش عن مصادر الأصالة فى تكوينها

وقيامها، أو هو لا يقوم نفسه على أساس من «اعتبار» هذه الأصالة، و«إعادة» تقديرها من جديد.

والقيم الإسلامية الخالدة، هى الأمر الأصيل الذى ارتبطت به شخصية الشعوب الإسلامية فى وجودها واستمرارها.

من هنا، اقترب «الأمل» إلى «ثقة»... سيصبح حتمًا بعدها حقيقة واقعة.

ولكن متى تقع هذه الحقيقة؟

هنا يعود الأمل من جديد فى أن يكون قريبًا، وهنا تشتد بنا الحاجة - كى يكون ذلك قريبًا - إلى أن نتجه إلى الله جلت قدرته، فى أن يهب هذه الشعوب الطاقة المادية والمعنوية على التحرر من هذا الاستعمار البغيض فى صورتيه معًا... إذ فى زواله وبعد شبحه يتحقق الحياد الإيجابى كاتجاه سياسى وتظهر «الأيديولوجية» الإسلامية كمذهب رئيسى فى التوجيه بين الشعوب الإسلامية.

والله الموفق والمعين.

القاهرة فى ١٩ من جمادى
الآخرة سنة ١٣٧٩هـ.

الدكتور محمد البهى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الأولى

اتصل الغرب المسيحى بالمشرق الإسلامى اتصال اعتداء مسلح طوال قرنين كاملين من الزمن، من نهاية القرن الحادى عشر إلى آخر القرن الثالث عشر الميلادى، وهو اعتداء الحروب الصليبية. واختبر فى هذا الاحتكاك: عقيدة الإسلام فى قوتها، وضعف المسلمين فى مجتمعهم، وسعة ما يملكون من ثروة فى بلادهم، فتأثر بالإسلام، وما جاء فيه من توحيد الله وبشرية الرسول: «لوثر»[1] (Luther) و«كالفن»[2] (Calvin)، فيما قاما به من الإصلاح الدينى فى النصف الأول من القرن السادس عشر. وظهر أثر الإسلام واضحًا فى رفض البروتستنتينية: «التثليث»، و«عصمة» البابا، وكونه صاحب السلطة الأخيرة التى لا يجوز التعقيب عليها فى تحديد رأى المسيحية، وغير ذلك من الرسوم والعقائد التى تعتبرها الكنيسة الرومانية -وهى الكنيسة الكاثوليكية- جزءًا من الإيمان المسيحى.

ويعتبر إلغاء عصمة البابا فى الإصلاح الدينى المسيحى ذا أثر قوى فى توجيه الإنسان الغربى نحو الاستقلال فى التفكير، وفى رد اعتبار قيمته فى الوجود. كما يعتبر رفض سلطة البابا فى تفسير المسيحية، على أنها السلطة الأخيرة التى لا تعقيب عليها: سببًا مباشرًا فى نشاط الفكر الأوربى فى المعرفة، وفى إفساح مجال للعلم والقوة على الملاحظة والتجربة، وفى وضع معايير جديدة للحياة الإنسانية، ولقيم المجتمع البشرى، لا تتعارض مع «الكتاب المقدس». وقد سلك «لوثر» نفسه - وكذا من عاونه فى إصلاحه الدينى -طريق الملاءمة مع نصوص «الكتاب المقدس» فى رفض ما رفضه وقبول ما قبله من عقائد ورسوم للعبادة، دون اعتبار آخر لسلطة بشرية أخرى تعقب على تفسيره وفهمه.

---

(١) ١٤٨٣: ١٥٤٦م.

(٢) ١٥٠٩: ١٥٦٤م.

كما أفاد الغرب من هذا الاحتكاك - مرة ثانية - فى إعداد نفسه ورسم خططه، انتهازاً لزيادة ضعف المجتمع الإسلامى وتفككه، كى يحصل على ما لدى المسلمين من ثروة تعد فى تنوع مصادرها ومقدار كميتها أضخم ما عرف ثروة فى أى مكان آخر من العالم القديم.

وكما كان القرن السادس عشر هو مصدر الإصلاح الدينى فى الغرب، كانت نهايته بداية اتصال الغرب المسيحى بالشرق الإسلامى اتصالاً اقتصادياً: سواء فى كشف موارد الثروة فيه، أو استغلالها ونقلها إلى الغرب فى صورة تبادل تجارى، أو فى أية صورة أخرى.

واستتبع الاتصال الاقتصادى - بعد تقدم صنع السفينة فى الغرب - اتصالاً آخر: هو نفوذ الغرب المسيحى على التوجيه السياسى للشرق الإسلامى. وازداد هذا النفوذ بالتدريج، حتى وصل منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين منتهى ما يصل إليه نفوذ قوى على ضعيف.

ولم يقف استخدام هذا النفوذ السياس القوى عند حد الاستغلال الاقتصادى لأجل رفع مستوى الغرب وتقدم صناعته من جانب وإضعاف مستوى الشرق والحرص على تخلفه من جانب آخر، بل استخدم أيضًا للتنفيس عن الهزيمة الصليبية فى الحروب الماضية، وعن الحقد الصليبى على بقاء بيت المقدس فى ظل السيادة الإسلامية!

* فكيف يستمر للغرب نفوذه السياسى على الشرق الإسلامى؟

* وكيف يبقى تخلف المسلمين؟

* وكيف تنفس النفس الصليبية عن حقدها؟

هذه الأسئلة الثلاثة... يرتبط بعضها ببعض فى تصور الغرب المسيحى المستعمر، ويحرص على أن تبقى متصلة بعضها ببعض فى مباشرة سلطته هنا فى الشرق. على أن وجود أى واحد من هذه الأمور الثلاثة وتمتعه بالبقاء، كفيل بتمكين الوجود للأمرين الآخرين.

لهذا... ما أن باشر النفوذ الغربى سلطته فى رقعة الشرق الإسلامى - منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر، حتى ابتدأ يعمل على تخلف المسلمين، وعلى تنفيس الحقد الصليبى.

وليس له هنا طريق آخر لتحقيق هذه الغاية، سوى تناول «مادة التوجيه» المحلية، وجعلها غير صالحة... ولم يكن هناك فى توجيه الشرق الإسلامى سوى: الإسلام، والتراث الإسلامى الذى خلفه المسلمون فى شرح إسلامهم...

* فإفساد الإسلام والتراث الإسلامى إذن، غرض أول للمستعمر الغربى.

* واختار وسيلته لذلك فيما أبرزه من المفارقة بين الغرب والشرق، من تقدم الأول وتأخر الثانى.

* وابتدأ «العلم» وابتدأت «الدراسة» هناك تبحث عن أسباب هذه المفارقة، وتركزت الأسباب أخيراً، فى المقابلة بين المسيحية والإسلام... المسيحية دين المتقدمين، والإسلام دين المتخلفين!!

وهناك قام بعض المسلمين ينادى باتباع الغرب فيما وصل إليه من حضارة صناعية وفكر طبيعى... ولكن لا يكون هذا الاتباع مثمراً للشرق الإسلامى إلا إذا اتخذ موقفًا من الإسلام يقربه من المسيحية!!

وعلى أساس هذا التقريب قامت حركة السيد «أحمد خان» فى الهند التى سماها «تجديداً»، وقامت حركة أخرى بعدها، هى حركة «ميرزا غلام أحمد» أخذت طابع الدين والعقيدة... وقصدت هاتان الحركتان إلى «تأويل» ما فى الإسلام مما يخالف المسيحية، وعلى الأخص ما يدعو إلى الاحتفاظ بـ«الشخصية الإسلامية»، وباستقلال الجماعة الإسلامية. وعاون المستعمر الغربى هاتين الحركتين بوسائل مختلفة، لأن فى نجاحهما بين المسلمين ما يحقق له تحويل مادة «التوجيه» فى العالم الإسلامى إلى مادة غير صالحة.

لكن الإسلام بعد قيام هاتين الحركتين لم يقض عليه، وأيضًا لم يزل بين المسلمين من يفهم الإسلام على الوجه الصحيح، ويؤمن به إيمانًا قوياً. فقام جمال الدين الأفغانى، ومن بعده الشيخ محمد عبده، ليدفعا حملة التشويه عن الإسلام، وليواجها المستعمر وجهًا لوجه.

ومن هنا كانت مقاومة الاستعمار مرتبطة ارتباطًا وثيقًا برد التحريف الذى قصد توجيهه للإسلام من المستعمرين وأعوانهم فى البلاد الإسلامية.

وبهذا نشأ فى التفكير الإسلامى - منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر - اتجاهان:

* **أحدهما:** لمالأة الاستعمار الغربى فى «تقريب الإسلام من المسيحية»، أو فى تبديله إلى توجيه دينى يرضى عنه المستعمر.

* **والثانى:** لمقاومة هذا التقريب أو هذا التبديل، مع الدعوة إلى احتفاظ المسلمين بإسلامهم كما يصوره القرآن والسنة، وإلى إعادة تماسك الجماعة الإسلامية، والسعى إلى استقلالها، وعدم انصهار المسلمين فى غيرهم.

وبانتهاء القرن التاسع عشر تم تبلور هذين الاتجاهين، وعرفت أسسهما فى العالم الإسلامى. وأصبح لكل منهما أتباع وأنصار.

جاء القرن العشرون، واستمرت أيضًا الثنائية فى اتجاه التفكير الإسلامى، ولكن أحد الاتجاهين عرف باسم «التجديد» بينما عرف الاتجاه الآخر باسم «الاتجاه الإصلاحى»، أو اتجاه تجديد المفاهيم الدينية.

* فاتجاه التجديد: سار فى طريق خدمة الاستعمار الغربى - ولكن عن غير قصد مباشر- على نحو ما سار الاتجاه المعاون له فى النصف الأخير من القرن الماضى. فحركة «التجديد» فى الفكر الإسلامى التى ظهرت فى الشرق الإسلامى منذ بداية القرن العشرين، تعتبر «تقليدًا» للدراسات الإسلامية فى تفكير المستشرقين الغربيين. ثم أضيف إلى هذا التقليد فيما بعد - منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بعد أن تهيأ الجو فى الشرق الإسلامى للحديث عن الإلحاد فى مواجهة الإسلام والمسلمين - ترديد للفكر الإلحادى المادى الغربى، وهو التفكير الوضعى والماركسى.

ودراسة المستشرقين للإسلام قامت أولاً بوحى من الكنيسة الكاثوليكية خاصة، للانتقاص من تعاليم الإسلام وإهدار قيم تعاليمه، حرصًا على مذهب «الكثلكة» من جانب، وتعويضًا عن الهزائم الصليبية فى (تحرير) بيت المقدس من جانب آخر! ثم تبنى الاستعمار الغربى هذه الدراسة فى الجامعات الغربية نفسها، حتى يقوى القائمون بأمرها على تصديرها إلى الشرق الإسلامى فى صورة كتب تؤلف

وترسل إلى طلاب الثقافة، أو فى صورة طلاب من الشرق الإسلامى يدعون أو يعانون على الدراسة هناك، ثم يمنحون من الألقاب العلمية ما يتمكنون بها من الظفر بوظيفة التوجيه فى الكليات النظرية بالجامعات الحديثة فى الشرق الإسلامى.

أما محاولة تجديد المفاهيم الدينية: منذ بداية القرن العشرين، فقد باشرها فى مصر تلاميذ الشيخ «محمد عبده»، كما قام بها فى الهند فيلسوف الباكستان «محمد إقبال».

وهكذا، نجد أن الاستعمار الغربى له صلة وثيقة بالفكر الإسلامى منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى الآن...

سواء فى خلق، أو معاونة ما يسند من اتجاه.

أو فى إثارة ما يقاومه من اتجاه آخر.

والفكر الإسلامى نفسه فى هذه الفترة -التى تبلغ الآن قرنًا كاملاً، هو مرآة لهذين الاتجاهين: لذلك كان عنوان الكتاب الذى نقدم له:

«الفكر الإسلامى الحديث، وصلته بالاستعمار الغربى»

وسيعرض الكتاب من أجل ذلك:

لحركة السيد «أحمد خان» وحركة «ميرزا غلام أحمد» فى القرن التاسع عشر كحركتين معالنتين للاستعمار الغربى، كما يعرض لحركة «جمال الدين الأفغانى» وحركة «محمد عبده» فى القرن التاسع عشر نفسه كحركتين مقاومتين للاستعمار.

ثم يعرض فكر «التجديد» منذ بداية القرن العشرين: كفكرة «بشرية القرآن» وفكرة «الإسلام دين لا دولة» من اتجاه الاستشراق، وفكرة «الدين خرافة»، وفكرة «الدين مخدر»، من الاتجاه الإلحادى المادى.

كما يعرض لحركة تحديد المفاهيم الإسلامية التى قام بها فى الهند «محمد إقبال».

وقد قصدت بهذا الكتاب بيان السبيل. لمن يحرص فى الشرق الإسلامى على الاستقلال فى التفكير وفى السياسة، من مفكرى الإسلام وزعماء السياسة بينهم.

وهذا السبيل ليس هو سبيل الغرب الذى يدعونا إليه، لأن فى سبيل الغرب قبول الاستعمار والمذلة، والدعوة إلى التخلف. وإنما هو سبيل الشرق الذى يريد أن يتحرر من استعمار الغرب وإذلاله وحرصه على أن يبقى متخلفًا.

لم أعرض استنتاجًا، وإنما عرضت حركات قامت.. عرضت أحداثًا وقعت. والأحداث أقوى فى التوجيه، لأنها من التاريخ، والتاريخ هو حياة الأشخاص والأمم، ومعبد الطريق أمام الإنسان وجماعته. عند السير على المستقبل.

الدكتور محمد البهى

القاهرة فى ٥ من ذى الحجة ١٣٧٦هـ.

٣ من يولية سنة ١٩٥٧م

فاتحة

- الاستعمار الغربي يتسلل إلى العالم الإسلامي.
- العالم الإسلامي في نظر الغرب المستعمر.
- وسائل الاستعمار في إضعاف المسلمين في إسلامهم.

الاستعمار الغربى يتسلل إلى العالم الإسلامى

فى بداية منتصف القرن التاسع عشر - وعلى التحديد فى سنة ١٨٥٧م

* تم للإنجليز الاستيلاء على الهند سياسياً، وانتقلت سلطة الحكم رسمياً من شركة الهند الشرقية (التى تأسست فى ٣١ ديسمبر سنة ١٦٠٠م، والتى انضمت إلى شركة أخرى جديدة فى سنة ١٦٨٩م) إلى التاج البريطانى. وزالت بذلك إحدى الدول الإسلامية الكبرى التى قامت فى مستهل القرن السادس عشر الميلادى، وهى دولة المغول فى الهند أو الدولة التيمورية (نسبة إلى تيمورلنك مؤسس هذه الإمبراطورية) الإسلامية فى آسيا الوسطى. أما الدولتان الأخريان إذ ذاك، فهما: الدولة الصفوية فى إيران، ودولة الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى وشرقى أوربا.

* كما تم فى السنة نفسها - وهى سنة ١٨٥٧ - استيلاء الفرنسيين على الجزائر كلها إلى الصحراء، بعد أن ابتدأوا غزوها سنة ١٨٣٠م.

* ومن قبل هاتين الدولتين الاستعماريتين - إنجلترا وفرنسا - احتلت هولندا فى بداية القرن السابع عشر جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) عن طريق شركة الهند الهولندية التى تأسست فى سنة ١٦٠٢. وذلك بعد ما ضاع استقلال البرتغال بإعلان ملك أسبانيا ضمها إلى بلاده فى سنة ١٥٨٠م، تلك الدولة التى عبدت طريق الاستعمار الغربى المسيحى فى وسط آسيا وشرقيها فى الهند وفى أندونيسيا سنة ١٥١١م، والتى حصل ملكها من البابا إسكندر على صك رسمى بأن البرتغال «سيدة بحار العرب والعجم والهند والحبشة»!!

فبعد قرنين ونصف، أى منذ بداية القرن السابع عشر الميلادى إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، تمكن الاستعمار الغربى المسيحى من السيطرة سيطرة تامة على المسلمين فى وسط آسيا وشرقيها، واتخذ له نقطة ارتكاز رئيسية فى أفريقية، كما تمكن من مد نفوذه إلى قلب العالم الإسلامى ومركزه الرسمى فى منطقة الشرق الأدنى. وبذلك طوق العالم الإسلامى من الشرق والغرب، وسلط ألاعيبه

ودسائسه على بقية التجمعات الإسلامية الأخرى بين هذين الطرفين. فوهنت هذه التجمعات، وانحل عقدها، وسقط بعضها إثر بعض تحت نفوذ المستعمر الغربى. وما جاءت الحرب العالمية الأولى وانقضى أجلها، حتى أصبح العالم الإسلامى كله تحت نفوذ هذا المستعمر!

* * *

العالم الإسلامى فى نظر الغرب المستعمر

نشرت جريدة «المؤيد» فى تمام القرن التاسع عشر (١٣١٧هـ)، ترجمة لمقال كتبه «هانوتو» المستشرق الفرنسى ومستشار وزارة الاستعمار الفرنسية، يصف فيه المسلمين وعقيدتهم، ويضع المقترحات الضرورية فى نظره لتوجيه سياسة فرنسا فى مستعمراتها الأفريقية الإسلامية تحت العنوان التالى:

«قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية»

وكان مما جاء فى هذا المقال:

«اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الأفريقية بسرعة لا تجارى، حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين (يونان الشرق) ثم تراموا بها على أوربا، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدينة يرجع أصلها إلى آسيا بل أقرب فى الوصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم، ألا وهى المدنية الآرية المسيحية. ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذى إليه وصلوا، وأكرهوا على الرجوع إلى أفريقية حيث ثبتت أقدامهم أحقابًا متعاقبة. ولكن لا يزل الهلال ينتهى طرفاه: من جهة بمدينة القسطنطينية، ومن أخرى ببلدة فاس فى المغرب الأقصى، معانقًا بذلك الغرب كله.

«... فى تلك البقعة الأفريقية التى أصبحت مقر ملك الإسلام، جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته. جاء القديس لويس- الذى ينتمى إلى إسبانيا بوالدته - ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده الإمارات الأفريقية الإسلامية. وعاود هذا الخاطر نابليون الأول، فلم يوفق إلى تحقيقه الفرنسيون إلا فى القرن التاسع عشر، حيث أخنوا على دولة الإسلام التى كانت

لاتنى فى متابعة الغارات على القرة الأوربية، فأصبحت الجزائر فى أيديهم منذ سبعين عامًا، وكذلك القطر التونسى منذ عشرين عامًا.

«. . . إذن فقد صارت فرنسا بكل مكان فى صلة مع الإسلام، بل صارت فى صدر الإسلام وكبده، حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسطواتها شعوبه، وقامت تجاهه مقام رؤسائه الأولين! وهى تدير اليوم شئونه وتجبى ضرائبه، وتحشد شبابه لخدمة الجندية، وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال».

«إن شعبًا جمهورى المبادئ (شعب فرنسا) يبلغ عدد نفوسه أربعين مليونًا لا مرشد له إلا نفسه: لا عائلات ملوكية فيه يتنازعن الحكم، ولا رؤساء يتناولون الرياسة بطريق الوراثة - هو الذى تقلد زمام إدارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساويه فى العدد، وهو ذلك الشعب المنتشر فى الأرجاء الفسيحة والأصقاع المجهولة، والمتبع لتقاليد وعادات غير التى نحنوا لها ونحترمها. . . هو الشعب الإسلامى السامى الأصل، الذى يحمل إليه الشعب الآرى المسيحى الجمهورى الآن ملح المدنية وروحها»!!

«ليس الإسلام فى داخلنا فقط، بل هو خارج عنا أيضًا. . . قريب منا فى «مراكش» تلك البلاد الخفية الأسرار، التى يشبه وجودها الحاضر مقدور الأبد فى الغموض والاشتباه، قريب منا فى «طرابلس الغرب» التى تتم بها المواصلات الأخيرة بين مركز الإسلام فى البحر الأبيض المتوسط وبين الطوائف فى باطن القارة الأفريقية، قريب منا فى «مصر»، حيث تصادمت معنا الدولة البريطانية فصادمنا إياها فى الأقطار الهندية، وهو موجود وشائع فى «آسيا» حيث لا يزال قائمًا فى بيت المقدس وناشرًا أعلامه على «مهد الإنسانية مقر المسيح»، ويحسب أنصاره وأشياعه فى قارات الأرض القديمة بالملايين، وقد انبعثت منه شعبة فى بلاد الصين فانتشر فيها انتشارًا هائلاً، حتى ذهب البعض إلى القول بأن العشرين مليونًا من المسلمين الموجودين فى الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون، فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء «لساكيامونى»، وليس هذا بالأمر الغريب. فإنه لا يوجد مكان على سطح الأرض إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشرًا فى الآفاق. .»

«فهو الدين الوحيد الذى أمكن انتحال الناس على زمرًا وأفواجًا، وهو الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه، ففى

البقاع الأفريقية نرى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء، يحملون إلى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار قواعد الحياة ومبادئ السلوك في هذه الدنيا، كما أن أمثالهم في القارة الآسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الألوان قواعد الدين الإسلامي، ثم هو - أي هذا الدين - قائم الدعائم ثابت الأركان في أوربا عينها، أعني في الآستانة العلية، حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية ويفصل الدول الغربية، بعضها عن بعض شطرين».

«وخلاصة القول: أن جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة، بها يديرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم إلى الوجهة التي يبتغونها. وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذي تتصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه. ومتى اقتربوا من الكعبة: من البيت الحرام، من زمزم الذي ينبع منه الماء المقدس، من الحجر الأسود المحاط بإطار من فضة، من الركن الذي يقولون عنه أنه سرة العالم، وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التي استحثتهم على مبارحة بلادهم في أقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق في بيته الحرام، اشتعلت جذوة الحمية الدينية في أفئدتهم، فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفًا. وتقدمهم الإمام مستفتحًا العبادة بقوله: (بسم الله) فيعم السكوت والسكون وينشران أجنحتهما على عشرات الألوف من المصلين في تلك الصفوف، ويملأ الخشوع قلوبهم ثم يقولون بصوت واحد: (الله أكبر)، ثم تعنو جباههم بعد ذلك قائلين (الله أكبر) بصوت خاشع يمثل معنى العبادة».

«لا تظنوا أن هذا الإسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد، غريب عن إسلامنا (في تونس والجزائر) ولا علاقة له به، لأنه وإن كانت البلاد (الإسلامية) التي تحكمها شعوب مسيحية ليست في الحقيقة بـ(دار إسلام) وإنما هي (دار حرب)، فإنها لا تزال عزيزة وموقرة في قلب كل مسلم صحيح الإيمان! والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الأسد حول قفص جلست فيه صغارها، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول إليهم من بينها».

«لا يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة فى ثنيات الفتوح وعلى أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التى حاقت بهم، ولكن لم يثبط هممهم. نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يشدون هذه المقاومة. ولكن رابطة الإخاء الجامعة لأفراد الإسلامى بأسره كافلة بالرياسة.. ففى مسألة علاقتنا مع الإسلام تجد المسألة الإسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال بعضها ببعض، وهذا ما يجعل حلها صعبًا ومتعذرًا -كما سنبينه»[1]!!

فـ«هانوتو» يعرض - فى هذه المقدمة لمقاله الطويل - لثلاثة عناصر رئيسية:

أولاً: أن ما لدى المسلمين من معرفة وثقافة هى بعض بقايا تمدن البيزنطيين (يونان الشرق).. وليست ثقافة أصيلة ابتدعوها!

ثانيًا: أن رسالة فرنسا بين المسلمين الذين خضعوا لسطوتها هى: (ملح المدنية وروحها)، التى يحملها شعب آرى مسيحى جمهورى إلى شعب إسلامى سامى الأصل.. له تقاليد وعادات تغاير عادات وتقاليد المسيحيين الآريين!

ثالثًا: أن المسلمين الذين وقعوا تحت سيطرة النفوذ الفرنسى ليسوا منقطعى الصلة عن بقية المسلمين فى الخارج، بل تربط بعضهم بعضًا رابطة قوية، وديار المسلمين التى تحتلها فرنسا يعتبرها المسلمون القاطنون فيها والخارجون عنها «دار حرب»، وليست «دار إسلام»... ولذا فالخطر موجود فى الداخل والخارج!!

هذه الروح التى تجلت عند هذا المستشرق الفرنسى، هى نفس الروح التى يحملها المستعمر الفرنسى والإنجليزى والهولندى فى نظرته إلى المسلمين فى آسيا وأفريقية، وفى توجيهه إياهم، وفى سلوكه معهم... وهى ليست للمسلمين أصالة فى الثقافة، فليست لهم قيمة ذاتية!

ولذا يجب على المسلمين أن ينتقلوا إلى الحضارة الأوربية الآرية المسيحية!! ويجب على شعوب أوربا المسيحية الآرية أن تتعاون فيما بينها على دفع الخطر الإسلامى الكامن ضمن الوحدة الإسلامية: الفكرية، والروحية، والغائية!

ولا يغفل «هانوتو» هنا أن يذكر - أو يتذكر - بواعث الحروب الصليبية فى القرون: الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر، فيقول: «وهو - الإسلام -

---

(١) تاريخ الإمام -جـ٢ ص٤٠١: ٤٠٧.

موجود وشائع فى آسيا، حيث لا يزال قائمًا فى بيت المقدس وناشراً أعلامه على (مهد الإنسانية ومقر المسيح)»!

فأهداف الحروب الصليبية قديمًا تركزت فى استرداد بيت المقدس من المسلمين البرابرة(!) ولا يزال مما يزعج الغرب الآرى المسيحى الآن بقاء لواء الإ... على «مهد الإنسانية»!!. وهذا لا يقل خطراً على الغرب عن اجتماع المسلمين ونطقهم جميعًا فى لحظة واحدة قائلين: «الله أكبر»، إذا ما اتجهوا لعبادة الله سبحانه وتعالى!!

وبهذا تتضح سياسة الاستعمار فى الشرق الإسلامى...

إنها سياسة تقوم على إضعاف المسلمين... فى إسلامهم أولاً وبالذات!!

* * *

وسائل الاستعمار لإضعاف المسلمين فى إسلامهم

ووسائله لذلك تنحصر فى توجيه الفكر الإسلامى نحو تحقيق هذه الغاية. وقد برز هذا التوجيه فى صورتين تنم كلتاهما عن هذه الغاية:

* **الصورة الأولى**: قيام بعض مفكرى المسلمين بحركة تقدمية فى الإسلام: تبغى تقرير سلطة المستعمر وتثبيت ولايته على المسلمين من الوجهة الإسلامية. أو بعبارة أخرى تبغى عدم تحديه ومعارضته، سواء فى مباشرة سلطته على المسلمين، أو فى إدخاله ما يسميه بنظم الإصلاح الحديثة بينهم!

* **الصورة الثانية**: قيام بعض الغربيين الآريين المسيحيين بإبراز الخلافات المذهبية. وتأكيد الفجوات والثغرات، بين طوائف المسلمين وشعوبهم، من الوجهة الشعوبية، أو الجغرافية، أو نظام الحكم... مع شرح كثير من مبادئ الإسلام شرحًا يشوهها وينحرف بها عن أهدافها الأصلية!. وذلك كله بالإضافة إلى تمجيد القيم المسيحية، والحضارة الغربية، والنظام السياسى، والسلوك الفردى للشعوب الغربية!

* وفى مقابل هاتين الصورتين: برز اتجاه إسلامى فكرى آخر وهو حركة المقاومة للاستعمار الغربى: سواء فى مظهره السياسى أو فيما يستبطنه ويخفيه من

الهجوم على الإسلام وإضعاف المسلمين. وهذا اتجاه يعتبر كرد فعل مباشر لتوجيه الاستعمار الغربى للتفكير الإسلامى فى صورتيه السابقتين.

ويدخل فى هذا الاتجاه الأخير: تلك المحاولة الفكرية لتجديد المفاهيم الإسلامية، بغية الملاءمة بينها وبين تطور الحياة وأحداثها المتلاحقة، حتى تطبع سلوك هذه الشعوب أفرادًا وجماعات بطابع إسلامى... كتلك المحاولة التى قام بها الشيخ محمد عبده فى مصر، ومحمد إقبال فى الهند.

وبذلك يكون الاستعمار الغربى للشعوب الإسلامية قد خلق اتجاهين فكريين متقابلين:

* اتجاها لحمايته...

* واتجاها آخر لمقاومته.

●●●●